مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (6) العدد (1) 2022
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (6) No. (1) 2022

تجلّيات السّخريّة في شعر ابن الهبّاريّة

د. صالح إبراهيم نجم*

يارا علي سليمان**

(تاريخ الإيداع 29 /9 /2021. قُبِل للنشر في 1/10 /2022)

□ ملخّص □

الشّعر السّاخر ظاهرة برزت في العصر العباسيّ، بعد أن تطوّرت وأخذت قواعدُها تترسخ لتكوّن فنّاً قائماً بذاته يعكس صورة الحياة في ذلك العصر، وقد لجأ إليه الشعراء واتخذوه منهجاً في كتاباتهم، للتعبير عن همومهم ومشكلاتهم من ناحية، ولبثِّ مواقفهم وانتقاداتهم إزاء المجتمع وتناقضاته من ناحية أخرى، في محاولة منهم للتصحيح وتقويم الاعوجاج، وذلك بأسلوب مضحك و مميز، ونصوصهم الساخرة تمسُّ شغاف القلوب بصدقها، فالشاعر ينظم قصيدته عفوَ الخاطرِ غير متكلّفٍ، يمزج كلماتها ومعانيها بحسّه الفكه المحبّ للدعابة.

والشاعر العباسيّ ابن الهبّاريّة اتخذ من السّخريّة أداةً لمواجهة الأخطاء المتفشيّة في مجتمعه، وقد تناولت سخريته قضايا كثيرة كالحديث عن فقرهم وسوء أحوالهم، وما يعانونه من تدني منزلةٍ في المجتمع، كما انتقدت مجتمعه وأهله انتقاداً لاذعاً، وكشفت فساد أنظمته وإهمال الحكّام لواجباتهم، وغيرها الكثير من المفاسد والخبايا، هذا ما جعل من نصوصه وثيقةً تاريخيّةً بالغة الأهمية.

الكلمات المفتاحية: ابن الهبّاريّة – السخريّة – الفقر – سوء الحال.

* دكتوراه في الأدب المملوكي والعثماني، مدّرس، جامعة طرطوس، كلية الآداب، قسم اللغة العربيّة، طرطوس، سورية.
* *طالبة ماجستير في اللغة العربيّة، جامعة طرطوس، كلية الآداب، قسم اللغة العربيّة، طرطوس، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (6) العدد (1) 2022
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (6) No. (1) 2022

The manifestations of irony in the poetry of Ibn Al-Habariyah

Dr.Saleh Abrahem nagm*
yara Ali Soleman**

(Received 29/9 /2021. Accepted 10/1/2022)

□ ABSTRACT □

Ironic poetry is a phenomenon that emerged in the Abbasid age, After it has evolved and its rules have taken root, To a stand alone art and to reflects the image of life in that age. The poets resorted to it and took it as a method in their writings to experess their concerns and problems on the one hand, to broadcast their positions and criticisms about society and its contradictions in an attempt to correct and more correct the distortions, This show a funny and distinctive style, it is poetry which touches hearts for its frankness. The poet writes his poem spontaneously without hesitation or pretending, mixing its words and meanings with his sense of humor and love of humor.

The Abbasid poet Ibn Al-Habariyah used Irony as a tool to confront the common mistakes in his society. His satire dealt with many issues such as talking about their poverty and deterioration and the low status they suffer from in society. It also criticized his society and his people sharply, and revealed the corruption of their regimes، the rulers neglect of their duties and many other evils and secrets this is what made his poetry very important historical document.

Keywords: Ibn Al- habariyah – The Irony- deterioration- poverty.

* Doctor in mamloky and Othmany age, teacher, Tartous University, Arabic department, Tartous, Syria
** postgraduate student, Department of Arabic of Arts and Humanities, Tartous University, Tartous, Syria

مقدّمة:

يعدُّ الأدبُ وسيلةً تظهرُ من خلالها الذّات المبدعةُ، لتكشفَ عن عالمها الغامض وما يحويه من أفكارٍ ورؤىً تنتجُ عن تفاعلها الإبداعيّ مع ما يحيط بها من ظروفٍ وتحولاتٍ زمانيّة ومكانيّة. والظّروف والتّحولات التي مرّ بها المجتمع العبّاسيّ غيّرت وجهه ومنحته اتجاهاً جديداً، وهذا ما جعل السّخريّة من أبرز ملامح التّحول في الموقف الشّعريّ عند الشّعراء العباسيّين، حتى أصبحت من السّمات البارزة التي يتسمُّ بها معظم الشّعراء ويتفننون في صوغها ليعبّروا في بعضها عن هموم ذاتيّة، وفي بعضها عن موضوعات اجتماعيّة، وبعضها عن موضوعات سياسيّة ، وأخرى ثقافيّة، وحضاريّة.

وشعر السّخريّة في العصر العباسيّ وجه من وجوه الأدب الأكثر إشراقاً وعلوقاً في النفس، والأجدى فائدةً، لأنّه يرتكز على التّندر والفكاهة التي تسرّي عن النّفس وتزيل همومها، إضافةً إلى أنّه أحد علامات التّحذير من أخطار الممارسات الخاطئة، أو شكل من أشكال المقاومة[1]، يجد فيه الأدباء مجالاً واسعاً وحريّةً كبيرةً للتعبير عمّا يختلجُ في نفوسهم من غضبٍ وسخطٍ على ما يجري من أخطاء تشوب مجتمعهم، وعلى ما يتلقونه من إهاناتٍ ومذّلاتٍ. فأينما وجد الخلل وجدت السّخريّة وسيلةً للقضاء عليه.

ومن هنا جاء اختيار البحث للشاعر العبّاسيّ ابن الهبّاريّة لما في تعبيره من إبداعٍ ينمُّ على تمثلٍ واضحٍ وصل فيه إلى ذروة ما أنتجه زمانه، ولما ينماز به من خصائص فريدة أبرزها ذاتيّته البيّنة التي كانت السّخريّة أبرز تجلياتها.

وابن الهبّاريّة: محمد بن محمد بن صالح، اشتهر (بابن الهبّاريّة) نسبة إلى أمّه، وهذه النّسبة إلى (هبّار) جدّ الشّاعر لأمّه، يكنّى أيضاً (بأبي يعلى). ولد سنة 414هـ ، وقيل إنّه ولد في آذربيجان، وبعض الباحثين من ذكر أنّه ولد في بغداد، ولكن أجمعت المصادر على أنّه نشأ في بغداد وتشاغل بالأدب، ولازم العلماء، ومهر في معرفة النّظم ومعرفة النّسب، كان ذا شهرةٍ واسعةٍ، ومكانةٍ مرموقةٍ بين شعراء عصره، ولكّنه ممن غُمرَ في العصور المتأخرة. كما أنّه كان شاعراً مجوّداً دقيقاً في أحكامه من جهة، ومن جهةٍ أخرى غلب على شعره الهجاء الساخر و التّهكم و الهزل.

لازمه الفقر وسوء الحظّ في حياته مما اضطره إلى التّنقل في البلاد؛ فقد كان كثير الأسفار، ويمكن حصر تنقلاته في ثلاث بقاع: الرّيّ وأصفهان و كرمان ، وربما كان ذلك الدّافع وراء هجائه ومدحه أحياناً. توفي في كرمان سنة509هـ، وكان عمره خمساً وتسعين سنة.[2]

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث من خلال التركيز على ظاهرةٍ أدبيّةٍ رسمت مساراً وكوّنت دعائم فنٍّ قائمٍ بذاته ميّز قائله وكان وراء شهرته، و نقل صورةً حيّةً عن وقائعِ وأحداثِ عصرٍ يعجُّ بالاضطراب والتناقض ألا وهو العصر العباسيّ.

ومن خلال كشف النّقاب عن شاعرٍ لم ينلْ حظه من الدّراسة وكان من خيرة ممثلي هذا الفن، ومن أعظم روّاده، والذي حدا به إلى الكشف أولاً عن مكنونات نفسه وتصوير ما يعانيه من شقاء وبؤس يرزح تحت

---

[1] ينظر: الفكاهة والضحك رؤية جديدة: عبد الحميد شاكر، د. ط، منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2003م، ص51 .

[2] ينظر: شعر ابن الهباريّة: د. محمد سنكري طرابيشي، تقديم: د. محمد حموية، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1997م،ص13وما بعدها.

أثقاله مع كثيرين من أبناء شعبه، وذلك بسبب الشرخ الكبير بين طبقات المجتمع؛ حيث كان المجتمع العباسيّ مؤلفاً من قسمٍ يعيش حياة الترف والبذخ، وقسمٍ آخر يضمُّ الأغلبية يتجرّع كؤوس الشقاء والحرمان حتى الثّمالة. والكشف ثانياً عن حقيقة الواقع الذي يعيشون فيه، وإزالة الستار عن عيوبه ومفاسده التي نخرت وتملّكت مختلف جوانبه السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والحضاريّة التي يعود سبب فسادها إلى فساد الحكّام وإهمالهم لواجباتهم، وعدم اكتراثهم لحال الدّولة وحال رعاياها. ومن هنا تتجلى أهداف البحث بالكشف عن تلك المكنونات وتلك المفاسد والعيوب، التي من خلال قراءتها نستطيع أن ندخل ونكشف النّقاب عن تناقضاتٍ شتى عاشها المجتمع العباسيّ وأثرت فيه.

منهجية البحث:

لم يقتصر البحث على منهجٍ واحدٍ في تقصي الحقائق، إنّما اعتمد على المنهج التكامليّ الذي يستنطق النّصوص ويستخرج الدّلالات جاعلاً لنتائجها الأهمية الأولى في إطلاق الأحكام.

وقد تناول البحث تجليات السّخريّة في شعر ابن الهبّاريّة من خلال مقدمة سريعة تناولت التّعريف بالسخريّة وأسباب لجوء الشعراء إليها في كتاباتهم، ثمّ أسهب البحث القول في مضامين السّخريّة ودلالتها في شعر ابن الهبّاريّة، مع ذكر أهم الأهداف التي سعى الشاعر للوصول إليها من خلال عرض نماذج من أشعاره في ذلك، وخُتِم البحث بالكلام عن أهم النتائج التي توصل إليها.

لذلك إنّ تناول السّخريّة والإبحار في مضامينها لا يتمُّ إلّا بالتعرّف إليها وإلى أسباب لجوء الشعراء إليها في كتاباتهم، والسّخريّة أدبٌ يقومُ على أساس الانتقاء للرذائل والحماقات، والنّقائص الإنسانيّة الفرديّة منها والجماعيّة، فالسّاخر يرصد ويراقب ما يجري من أخطاء لتحقيق أهداف متعددة منها: التّنفيس عن آلام مكبوتة، أو للتعويض عن حرمان ما، أو للتّخلص من بعض السّلبيات في المجتمع ...[1]، فمن خلال هذا الفن وما ينماز به من تقنيات (يحاول الأديب السّاخر إظهار الحقائق...ليمنع الإنسان من فعل الرّذائل)[2].

ولجوء الشعراء إليها يكون لدوافع عديدة وأسباب متباينة، يمكن حصرها في جانبين: جانب ذاتيّ، وجانب موضوعيّ.

أمّا الجانب الذّاتيّ فيتعلّق بنفسية الشاعر أو الأديب، في جوانبها السلبيّة والإيجابيّة، في رضاه وغضبه، في حبّه وبغضه، في صفائه وكدره.

وأمّا الجانب الموضوعيّ فيشمل الظروف المختلفة التي تحيط بالشاعر أو الأديب من سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وفكريّة، وهذه الظروف قد تحرّك بواعث السّخط أو الرّضا عند الشاعر، فيسخر منها ويتهكّم إذا كانت مخالفة لمبادئه واعتقاداته التي يؤمن بها.[3]

هذا ما جعل مضامين السّخريّة في كتابات الأدباء ونصوصهم تشمل جوانب مختلفة منها **السّخريّة السّياسيّة:** التي يوجّه الأديب فيها سهامه نحو أرباب الدّولة ويخصّهم بهجاء لاذع، خاصةً إذا كانت هذه الأوضاع مضطربة تعجُّ بالقلاقل، يسودها الفساد. أو **السّخريّة الاجتماعيّة:** التي تبثُّ ما يمور به المجتمع

---

(1) ينظر الفكاهة والضحك رؤية جديدة: عبد الحميد شاكر، ص51.

(2) في محراب الكلمة: ياسين الأيوبي، المكتبة العمرية، بيروت، 1999م، ص88.

(3) السخرية في شعر نديم محمد: : د. آصف درياتي. https: //books .google .com، تاريخ القراءة 2021/7/15م.

من اضطرابات وسوء أحوال النّاس، وفيها تظهر الجوانب المعنويّة في ذات الشّاعر كالسّخريّة من البخل، و الشّكوى من الفقر وضيق الحال. أو **السّخريّة الثقافيّة:** وفيها يوجه الشعراء سهام نقدهم السّاخر نحو الواقع الثّقافي وما يتسرب إليه من جمودٍ وضيق أُفقٍ، أو إهمالٍ.[1] بالمجمل إنّ السّخريّة تشمل الفرد والمجتمع والأخلاق الاجتماعية، والقضايا الإنسانيّة كافةً، وهذا ما يجعلها فنّاً متكامل الأبعاد والأهداف.

وما شهده العصر العباسيّ من اضطراب الحياة السياسيّة وفقدان العدالة الاجتماعية وما رافق ذلك من انحراف أخلاقي – سببه الفقر والعوز، والاختلاط والتمازج الكبير– دفع الشعراء إلى إشهار السخرية كسلاحٍ فتّاكٍ بوجه هذه العيوب والنقائص، وابن الهباريّة أحد هؤلاء الشعراء.

– تجليات السّخرّية في شعر ابن الهباريّة:

إنّ فن السّخريّة من الفنون الرّاقية التي تتسمُ بديمومتها، وبقوة تأثيرها، وهذا ما جعلها بيد الأدباء والشعراء سلاحاً فتاكاً يشهرونه بوجه أيّ خللٍ يرونه أو يتعرضون له، فأينما وجد الخلل وجدت السخرية وسيلةً للقضاء عليه، لأنّها تقوم في أساسها على رصد العيوب والمفاسد الأخلاقية والحماقات الإنسانية التي يستقيها الكتّاب من تجربتهم الحياتية وملاحظاتهم الدّقيقة لما يجري في الحياة من وقائع و أحداث[2].

وابن الهبّاريّة بعينه النّاقدة وذاته التي ترفض الخلل وتتوق إلى المثالية في كلّ شيء، جعل من السّخرية أداةً لمواجهة الأخطاء المتفشية في مجتمعه، فلم يترك مثلبةً إلا وتناولها ورماها بسهامٍ مصمية سواء أكانت في الواقع السياسي بنظامه وحكّامه، أو في الواقع الاجتماعيّ بعاداته وتقاليده، أو الثقافيّ أو الحضاريّ، فسخريته لم تغفل أي شيء من شأنه أن يشوّه صورة المجتمع والدّولة الفاضلة المنشودة.

وسنبدأ بالتّجليات السّياسيّة لأنّ القسم الأكبر من نصوص ابن الهبّاريّة تناول الدّولة بحكّامها ووزرائها، ولأنّ الواقع السّياسي الفاسد الذي عاش تحت كنفه كان العامل الأكبر لفساد الحياة بجوانبها المختلفة في عصره.

1– التّجليات السّياسيّة:

إنّ السخرية ترتبط بالسياسة ارتباطاً وثيقاً؛ فكثيراً ما كان الكتّاب السّاخرون روّاد الحركات الإصلاحية في التاريخ.[3] وقد بدأت ملامح السّخرية السياسية تظهر بوضوح مع بداية العصر العباسي، وذلك سببه انتكاس أداة الحكم حيث كثر الوشاة وانتشر الفساد وعمّ الظلم في أرجاء البلاد؛ ففي عصر المقتدر توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى مرتين وثلاثاً، وكلّ وزير يعمل ما في وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدّولة، وهنا برز الشعراء الذين خصّوا هؤلاء بهجاء لاذع نفذوا فيه إلى لون من التّصوير الهزليّ السّاخر على نحو ما هو معروف عند ابن الرومي، والبحتري، والمتنبي وغيرهم.[4] هذا اللون السّاخر الذي وسمَ أدبهم أصبح أسلوباً ومنهجاً يسيرون عليه في نقد الظواهر التي تشوب مجتمعهم وتعكّره.

من ذلك ما يطالعنا في قول بعضهم في الخاقاني الوزير: [5]

---

(1) ينظر العصر العباسيّ الأول: د. شوقي ضيف، ط16، دار المعارف، مصر، 2004م. ص434 وما بعدها.

(2) ينظر الهجاء في الشعر الأندلسي: د. نافع عبد الله، ط1، كلية الآداب ، جامعة بيرزيت، 1984م. ص18

(3) ينظر السّخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري : د. محمد نعمان طه، ط1، دار التوفيقية، القاهرة، 1978م. ص54

(4) ينظر العصر العباسي الأول: د. شوقي ضيف، ص430

(5) المرجع نفسه: ص430

للدواوين– مُذ وليتَ –عويلُ ولمالِ الخراجِ سِقمٌ طويلُ

يتلقى الخطوبِ حين ألمّتْ منك رأيٌ غثٌّ وعقلٌ ضئيلُ

إن سمنتم من الخيانةِ والجو رِ فللارتفاعِ جسمٌ نحيلُ

والأمثلة على ذلك لا تعدّ ولا تحصى، فهناك الكثير من الشعراء الذين انهال سخطهم وسخريتهم على الدولة بوزرائها وقوادها وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، لا بدَّ منه للتخلص من ظلمهم وفسادهم، ولإرساء دعائم العدل والمساواة التي حرموا منها .

و لابن الهبّاريّة في هذا المجال بصمةٌ واضحةٌ وأثرٌ لا يمكن إغفاله، فالقارئ لنصوصه سيجد أنّه تطرق كثيراً إلى السياسة وواقعها الفاسد؛ خاصةً أنّ الفترة التي عاصرها من مراحل العصر العباسي (لم يبقَ في يد الخليفة أي نفوذ فعليّ، وأصبح ألعوبةً في أيدي الأمراء والمغامرين والقوّاد والجواري، وتولى السلطة الحقيقية السلاجقة الذين أقبلوا على بغداد لنصرة السّنّة)[1]، وهم بدورهم غير جديرين بقيادة الدولة ورعاية مصالح النّاس. فما كان من ابن الهبّاريّة إلّا تسليط الضوء على فساد هؤلاء الحكّام وسوء سياستهم التي جعلت من واقعهم بمختلف جوانبه واقعاً مريراً مؤلماً، عانى منه معاناةً جمةً جعلته يعلن تمرده على هذا الواقع ويستنكر وجود هؤلاء العجم الأجلاف، ويرفض استلامهم لمقاليد الدولة، بسخريةٍ تنقد أخطاءهم وتفضح ممارساتِهم.

ففي أكثر من موضع أشار إلى جهل هؤلاء الحكّام وعدم امتلاكهم القدرات التي تجعلهم جديرين بقيادة الدولة ورعاية مصالحها، ففي هجائه لرؤساء مدينة (أصفهان) يبين لنا صفات القادة الذين يمتلكون زمام الأمور، المتمثلة بالجهل والحماقة يُضافُ إليها التقصير في أداء المهام مع استغلال المنصب لنهب خزائن الدولة، يقول: (من الكامل)[2]

وابنُ الخطيبيّ الصغيرُ لحكمهِ زلَلٌ، وجرؤ المندوي جليسُه

والوَقْفُ في أيدي العُلوج، وكلُّهم قد زاد من مال المَصالحِ كيسُه

فهذه الأبيات تحملُ سخريةً مريرةً تحطُّ من شأن (ابن الخطيبي) وتقلل من مكانته، فكلمة (الصغير) كناية عن جهل المهجو وعدم امتلاكه المعارف والخبرات التي تؤهله لهذا المنصب، فهو كالطفل الصغير الذي لم يكتسب أيّة معرفة أو خبرة تمكنه من القيام بعملٍ ما، فكيف إذا كان هذا العمل هو الائتمان على مصالح الدولة وخيرات الناس، وابن الخطيبي معروف بجهله لجميع أنواع العلوم، وهذا ما جعل استلامه لهذا المنصب ليس خطأً فادحاً إنّما زللاً كبيراً لا يمكن تلافيه أو غض النّظر عنه.

كما يمكننا عدّ كلمة (الصغير) أيضاً نوعاً من الشّتم فيه استحقار للمهجو، حيث إنّها كناية عن وضاعته وصغر مكانته بين الناس، وابن الخطيبي هذا يمثل حكام الدولة جميعاً.

ولا يقف ابن الهبّاريّة عند هذا الحد إنّما يصور لنا في البيت التالي كيف أنّ هؤلاء الحكام من الكفّار العجم سيطروا على خزائن الدولة ونهبوا أموالها، فقد امتلأت جيوبهم من كدِّ الناس وشقائهم.

وفي نصّ آخر إضافةً إلى جهلهم يشير إلى ضعفهم في تسيير أمور الدولة، يقول: (من الكامل)[3]

---

(1) المعجم الأدبي: جبور عبد النور، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م. ص177

(2) شعر ابن الهبّاريّة: ص111-112.

(3) المرجع السابق: ص105.

"المقتدي" المسكين ليس له عقل ولا رأي ولا جَسُ

يبني وينقضُ ما يُشيّدُهُ فكأنّه مُتبخّرٌ يَفْسُو

فهذا الخليفة "المقتدي" رجلٌ لا يمتلك عقلاً ولا معرفةً تمكنه من إصدار آراءٍ أو قراراتٍ صائبة، كما أنّه ضعيف الشخصية متقلّب الأهواء غير قادر على الثبات في قراراته، فجاءت كلمة (المسكين) لتتضح بسخرية مريرة تجعل من الخليفة رجلاً مسكيناً يرثى لحاله، لأنّه فقير العقل والعلم.

هذه السّخريّة لا تقف عند هذا الحدّ إنّما تتجاوزه لتحطّ من قدر الخليفة وتستصغره بين الناس، فقد جعل كلامه وأفعاله كالفساء سُرعان ما يتبخر في الهواء، هذا وإن دلّ على شيء إنّما يدلّ على ضعف الخليفة وعدم قدرته على سياسة الدولة والتحكّم بأنظمتها، كما أنّه يدلُّ على ضياع هيبة الخلافة التي ضاع معها أمن الدولة واستقرارها.

ومما زاد سخط الشاعر ونقمته على أرباب الدولة الملكشاهية هو ضعف شخصيتهم وسهولة تحكّم الآخرين بقراراتهم، حيث بيّن لنا كيف كانوا ألعوبةً سهلةً في أيدي الوشاة، (من الخفيف):[1]

كيفَ أصغيتَ للوشاةِ وألْقَي تَ زمامَ النُّهى إلى الأغبياءِ

فحذفتَ الإخاءَ والودَّ والصح بةَ حَذْفَ النحاةِ حرفَ النداءِ؟

في هذه الأبيات يتساءل ابن الهبّاريّة مستنكراً كيف استطاع الوزير أن يصغي للوشاة و يقطع العلاقة الوطيدة التي تربطهما، فأين العقل الذي يميز الصواب من الزلل، وأين الصحبة والمودة؟.

وبسخرية ممزوجة بفكاهة استطاع ابن الهبّاريّة أن يعبّر عن شخصية الوزير و أن ينقل لنا صورة الواقع وأحداثه بشفافية وصدق، ذلك عندما استغل معارفَه ومهاراتِه اللغوية ؛ فقد استغلّ في علم النحو حذف النحاة حرف النداء من المنادى، فكما حذف النحاة حرف النداء الملازم للمنادى والقريب منه، استطاع الوزير أن يحذف علاقة الودّ والإخاء ويقطع روابطها مع الشاعر بسهولة تامة على الرغم من قربهما وقوة العلاقة التي تجمعهما، هذا التشبه الساخر الطريف له دلالات عدّة أولها أنّ حكام دولته ضعفاء ولا يمكن الوثوق بهم ولا بقراراتهم ، ثانيها أنّهم متقلبو الأهواء سرعان ما يغيرون آراءهم ، ثالثها أنّهم جهلة لا يمكن مصاحبتهم ولا يمكن الاعتماد عليهم.

وفي نصٍّ آخر يبيّن لنا كيف يتعامل هؤلاء مع السّلطة أو المناصب التي يستلمونها، فهذا المنصب إرثٌ عن آبائهم وأجدادهم، لا أحد يساومهم عليه أو يأخذه منهم، فهو بالنسبة إليهم حقٌّ، وهم ورثته الشرعيون، من مثل قوله في الكافي أبي الفضل: (من السريع)[2]

لا تَعْذُلُوا الكافِيْ على فِعْلِه فعُذْرُهُ يَقْضِي على عاذِلِيهْ

ولا تَظُنُّوه دَخِيلاً ولا تَكَلَّفَ المَدَّ ولا يَدَّعِيْهْ

فإنَّهُ ظَنٌّ به وارثٌ لِعِلْمِهِ عن جَدِّهِ أو أَبِيْهْ

(1) المرجع السابق: ص72، النُّهى: جمع نُهيَة، أي العقول، لأنها تنهى عن القبيح.

(2) المرجع السابق: ص193.

وابن الهبّاريّة في سخريته لا يقف عند فضح ممارساتهم وكشف خداعهم وأطماعهم في السلطة، إنّما يتجاوز ذلك ليجردَهم من إنسانيتهم، ويجعلهم من فصائل الحيوانات التي لا تمتلك العقل الرزين ولا القلب الرؤوف الذي يميز الإنسان من باقي الكائنات الأخرى.

وجرأة ابن الهبارية وصراحته في السّخريّة والشتم جاءت لتنقل صورة الواقع، وتدلّ على أنّ هذا الواقع أصبح رديئاً فاسداً تحكمه قوانين كقوانين الغاب، حيث يستلم السلطة من هو أشدّ بطشاً أو أكثر مالاً، أو من تربطه صلة قرابة بأحد الحاكمين، كما جاء في هجائه للوزير ابن جهير الذي عاد إلى الوزارة لمصاهرة نظام الملك،(من البسيط) :[1]

قل للوزير ولا تفزعْكَ هيبتُهُ وإن تعاظمَ واستولى لمنصبهِ

لولا ابنةُ الشيخ ما استوزرتَ ثانيةً فاشكر حِراً صِرْتَ مولانا الوزيرَ به

ففي سخرية ابن الهبّاريّة هذه ما يجرد الوزير من كرامته ويُريق من ماء وجهه، وهو على هذا مهما علا وارتقى في منصبه فقد خسر هيبته وخسر احترام الناس له.

وكلّ ما ورد ذكره يدلّ على صغر مكانة الحكّام وضياع هيبتهم حتى لم يعد أحد يحسب لوجودهم حساباً.

وهكذا تكرر هجاء ابن الهبّاريّة لهؤلاء وكثرت صوره السّاخرة تأكيداً منه على أنّ هؤلاء هم سبب المعاناة التي يعيشونها، وهم الطفيليون، بل الآفات التي تضرُّ تربتهم، الآفات التي يجب أن يقضوا عليها، ويتخلصوا منها؛ لتصحّ هذه التربة وتعود خصوبتها.

ومن هذه الصّور السّاخرة نستشف صورة الواقع السياسي الذي كان سائداً في زمن ابن الهبّاريّة، حيث إنّ هذا الواقع مرير يعجُّ بالخلل والاضطرابات ، يسوده الفساد والظلم، يتجرع الكثير من أبنائه كؤوس المرارة حتى الثمالة.

والشاعر تجاه ذلك لا يملك إلا سلاح الكلمة الممزوجة بالهزء والسخريّة، الكلمة التي تحارب هذه الآفات وتقاوم بشراسة عن حقّه وحقّ الشعب المسلوب؛ لذلك يمكن عدّ هذه النّصوص شكلاً من أشكال الثّورة، لأنّ "السّخريّة وسيلة لا تقل أهمية عن فعل الثّورة لما لها من دور كبير في تحشيد الثّورة عن طريق كشف مساوئ رموز السلطة أمام الجميع"[2]، وهذا ما قام به ابن الهبارية وناضل من أجله، ولعلّ ذلك يؤكد لنا ما ذهب إليه أدونيس من أنّ "الشاعر عامل من عمّال الثورة ، لكنه يعمل باللغة. اللغة، إذن، هي مادته الثوريّة ."[3] ، اللغة التي ينقل لنا من خلالها وبكل موضوعية وشفافية صورة الواقع، وينقل أيضاً ما تحمله نفسه من ألمٍ عميق وشعور بالمرارة والأسى على ما آلت إليه الحياة العباسيّة، حتى أننا نستطيع القول إنّ شعور الاغتراب قد طغى عليه، فقد عانى من غربتين؛ غربة زمانية: حيث إنّ الزمن الذي عاصره انحلت فيه كلّ القيم والمبادئ التي تربى عليها العربي وألفها، وذلك بسبب التمازج الحضاري الكبير مع الشعوب والأمم الأخرى، هذا الأمر جعل ابن الهبّاريّة يشعر بغربة كبيرة عما يتفرد به العربي ويسمو، على الرّغم من أننا نجد في بعض نصوصه ما يدلّ على اندماجه بما شاع في عصره من مجون وخلاعة، إلا أنّها غير كافية لإطلاق حكم فصل على انخراطه بها

---

[1] المرجع السابق: ص75

[2] السخرية في شعر عبد الوّهاب البياتي: إعداد أ. د. صدام فهد الأسدي والباحث طالب الدكتوراه: باسم حساب راشد، 2011م، ص10.

[3] زمن الشعر: أدونيس، دار الفكر للطباعة والنشر، ط5، 1986م، ص121.

وقبوله إيّاها، وربما كانت مجرّد محاولة للانسجام مع ما شاع وانساق وراءه جميع النّاس، أو محاولة للبحث عن ذاته التي أصبحت غريبةً عمّا يحيط بها.

هذا يفسر لنا ميله للهزل ودعوته إليه: (من مجزوء الكامل)[1]

واخلع عذارَكَ في عذا ... رِ مهفهَفٍ مثلِ القضيب الناعمِ

أطعِ الهوى واعصِ النُّهى ... واشرب على وجهِ الحبيبِ ورَوْضهِ

اهزلْ فقد هزلَ الزما ... نُ وجَدّ في حربِ الأديب مع الزمان

أمّا الغربة الثانية فهي غربة مكانية، وقد تنقلّ ابن الهبارية كثيراً في أرجاء الدولة وابتعد عن مسقط رأسه بغداد بحثاً عن رزقٍ يعيله، وعلى الرغم من شوقه وحنينه الملتهب لم يستطع العودة إليها، لما انتابه من أسقامٍ تملّكت جسده.

2- التّجليات الاجتماعيّة:

مما لاشكّ فيه أنّ فساد الواقع السّياسيّ واضطراب أنظمته يؤدي إلى فساد الواقع الاجتماعي واضطراب الحياة فيه. وما أكثر الاضطراب والتناقض في العصر العباسيّ حتى عُرف بعصر المتناقضات، فقد ضمّ بين دفتيه طرفي النقيض في كلّ شيء، هذا ما حمل الشعراء إلى النّقد اللاذع والسّخريّة المريرة لإعادة التوازن والاستقرار لحياتهم.

وأكثر ما تناوله الشعراء في نصوصهم وصوّروه تصويراً دقيقاً هو حياة البؤس والمسغبة التي يرزحون تحت أثقالها؛ فقد كُتب على الشّعب أن يتجرع غُصص الشقاء وأن يتحمّل ما يُطاق وما لا يُطاق من طغيان الخلفاء العباسيين الذين طوّقوه بالاستبداد، فكان جمهور الناس من الأحرار يعيش في الضنك والضيق لا الرّقيق منه فحسب، وكأنّهم جميعاً كانوا أرقاء في هذا النّظام[2].

وإنّك لترى ابن الهبّاريّة يكثر في نصوصه من الإشارة إلى الفقر الذي لازمه طيلة حياته ودفعه إلى السفر والتنقل في أرجاء البلاد بحثاً عن لقمة تسد رمقه ورمق عياله، إلا أنّه لم يوفق وبقي فقيراً بائساً خاوي الجيب، و يزيد من لهيب مرارته وشقائه عدم رواج الشعر وإهماله من قبل الحكومة والناس، فجاءت معظم قصائده تبث شكواه من ذلك، من مثل قوله: (من الخفيف)[3]

أنا في أصفهان في تنغيصِ ... بين سِعْرٍ غالٍ وشِعْرٍ رخيصِ

قد تحيّرتُ في عيال وفقرٍ ... وغلاءٍ، وليس لي من محيصِ

ولعلّ سبب كساد الشعر وإهماله هو انشغال الناس بتأمين لقمة العيش والبحث عن مصدر رزق ينتشلهم من المسغبة التي يعيشون فيها، فما هي حاجتهم إليه؟ وماذا هم صانعون به؟!

ومعاني السّخرية وفعاليتها تزداد في قوله: (من مجزوء الرجز المخمس)[4]

---

[1] شعر ابن الهبّاريّة: ص177

[2] ينظر العصر العباسي الأول : شوقي ضيف. ص45، 51، و ص186، 189

[3] شعر ابن الهبّاريّة: ص117.

[4] المرجع السابق: ص179، اليعملة من الإبل: النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل.

لو كان لِيْ بِضاعَهْ أو في يَدِي صِنَاْعَهْ
ألقى بها المَجاعهْ لم أخْلَعِ الخلاعَهْ
ولم أُفِقْ من الجَذَل
ولا دَرَسْتُ مَسْأَلَهْ ولا رَحَلْتُ يَعْمَلَهْ
ولا قَطعْتُ مَجْهَلَهْ ولا طلَبْتُ مَنْزِلَهْ
ولا تعلَّمْتُ الجَدَلْ

وفي هذه الأبيات يؤكد لنا الشاعر أنّ سبب معاناته وفقره هو عدم امتلاكه مهنةً تُعيله غير مهنة الشّعر الذي لم يعد درعاً يقيه من المجاعة التي بدورها كانت سبباً في أن يسلك طريق التهتك والمجون. وفي الأبيات نفسها يشير ثانيةً إلى أنّ المعرفة والجدل الذي كان يقطع المسافات الشاقة من أجل الحصول عليها لارتقاء المنازل الراقية لا نفع لها في هذه الدولة القائمة على الجهل والفساد.

هذه الفكرة تكررت في أكثر من موضع، وتكرارها تأكيد على أنّها المعضلة التي يجب التخلص منها، فحلها بمثابة حلّ لمشاكلهم جميعاً.

وجدير ذكره هنا أنّ حديث الشاعر عن نفسه لا يعنيه فقط، إنّما ذاته تمثل الجماعة وتتحدث بلسانها، فما يتجرعه الشعب ويعاني مرارته يتجرعه ابن الهبّاريّة.

ومن خلال الحديث عن إهمال الشعر وعدم اهتمام الدولة به تتضح أمامنا صورة الواقع الذي انتشر فيه الجهل ووقع فيه الظلم على صاحب العلم والمعرفة، فقد أشار الشاعر إلى هذه النقطة في أكثر من موضع لما أصابه من هذا الظلم وألهبت جمراته نار السخط والغضب، من مثل قوله: (من الكامل)

الجهلُ أَرْوَحُ للفتى من عقله يُمسي ويصبحُ آمِناً مسروراً
ترك العواقبَ جانباً عن فكرِهِ وسعى رَواحاً في الهوى وبُكورا
والعقلُ يعقِلهُ على حَسَراته ويصُدُّه فيَرُدّه محسورا

إلى أن يقول: [1]

أخفيتُ عِلْمي واطّرحْتُ فضائلي عَلِّيْ أكونُ إذا جَهِلْتُ أميرا

هذه المفارقة الساخرة القائمة على المقارنة بين حياة الجاهل وحياة العالم تتضح بمعانٍ كثيرة أهمها ألم المظلوم وحسرته على حقه المسلوب، كذلك الحسرة على ما كافح وصارع للوصول إليه من علمٍ ومعرفةٍ ليحيا حياةً كريمةً تليق به إلا أن دولة الجهل التي يعيشون تحت كنفها حرمته أبسط حقوقه، هذا ما دفعه للقول ساخراً بأنّه سيطرح علمه جانباً علّه يعيش أميراً كهؤلاء الجهلة.

[1] المرجع السابق: ص92، 93.

ومن المظاهر الاجتماعية التي أثارت حفيظة الشاعر، وجعلته يوجه سهام نقده نحوها، هي انتشار المكر والخداع بين الناس وتطبعهم بالتملّق والغدر، (من البسيط) : [1]

هيهات هيهات، كلُّ النّاسِ قد قُلِبوا في قالبِ الغدرِ والإعجابِ والمَلَقِ
فإن تخلّقَ منهم بالنُّهى رجلٌ عادتْ به نفسُه لؤماً إلى الخلُقِ

وفي أخرى من شّدة سخطه على ما أصاب النّاس وغيّر طباعهم نراه يصفهم بوحوش الغابة التي تُخيف وتروّع الإنسان، إلا أنّ فعالية السخرية تكمن في أنّه جعل منهم أوحش من سباع الغاب وأكثر تخويفاً، حتى أصبح يخافهم ويأمن سباعَ الغابة أكثر منهم، يقول: (من الطويل) [2]

أمنتُ سباعَ الوحش وهي مَخُوفَةٌ وخِفتُ سباعَ الإنسِ، والشرُّ في الإنسِ

ونلحظ هنا أنّ الشاعر لم يختر السباع عبثاً أو ضرب عشواء، إنّما اختارها من بين فصائل الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم، لأنّه أراد الإفادة من صفات هذه الحيوانات المعروفة بقوّتها وشدّة فتكها، فهي تفترس الكائنات الأخرى بشراسة غير آبهة إلا لما تتغذى عليه وتشبع جوفها به، وهذه الصفات أصبحت من خصائص الناس في زمانه، ولا يقف عند هذا الحد، بل نجده يجعل منهم أشد فتكّاً وأكثر شراسةً من هذه السباع، حيث ينهشون بعضهم وينقضّ الواحد على الآخر من دون رحمة ولا شفقة، فجلّ همهم تأمين احتياجاتهم ومصالحهم، ويمكننا القول هنا إنّ بعض هذه السباع مثل الأسد معروفٌ عنها أنّها تتحلى بالرحمة والرأفة، حيث إنّه قد يموت إن علم أنّ فريسته التي انقضَّ عليها تحمل صغيراً في أحشائها. وعليه جعل الشرّ متأصلاً في أنفس البشر، وهذا الشر منعكس على وجوههم يزيدها بشاعة، فتثير الرعب والخوف في قلوب الآخرين. كما تثير أشكال السباع الرهبة والخوف في قلب من يراها؛ لذلك أصبح الشاعر يخاف الناس ويأمن لتلك السباع.

إضافة إلى ذلك يمكن عدّ هذه الصورة كناية عن شدة فقر الناس الذين ينهش أحشاءهم، فيجعل منهم وحوشاً تفتك بلحوم بعضها، فالبقاء كما يقال للأقوى. عليه يتضح لنا إدراك ابن الهبارية لضعفه، فهو على يقين أنّه لا يقوى على المقاومة وأنّه أبطأ فريسة تركض مسرعةً لتحمي نفسها وتحافظ على بقائها حيّةً من تلك الوحوش.

وكلّ ذلك يصب في مجرىً واحد ألا وهو نقل صورة هذا الواقع بأدق تفاصيله وبصدق تام، غايته إظهار الحقائق وتطهير المجتمع من آفاته التي تفتك به كهذه الوحوش.

يُضاف إلى تلك المظاهر سخرية ابن الهبّاريّة من ظاهرة البخل التي تفشت في مجتمعهم، فأبى وجودها، وضمَّ صوته إلى هؤلاء الشعراء الذين استنكروا هذه الظاهرة، وشنّوا حرباً عليها لتطهير المجتمع منها، من مثل قوله: (من السريع)[3]

---

[1] المرجع السابق: ص158

[2] المرجع السابق: ص109.

[3] المرجع السابق: ص163، النافجة : وعاء المسك في الظبي ، وينظر الهجاء الفكاهي في الشعر العباسي: أ. د ثائر الشمري، كلية التربية الإسلامية، جامعة بابل، مجلة دواة، مجلد2، الإصدار9، 2016م، ص196.

لكنّ دون الخبز في داره وقائع الدّيلم و التّركِ
رغيفه اليابس في جيبه كأنه نافجةُ المسكِ
يرى صيام الضيف في بيته نُسكاً ومن يزهد في النّسكِ؟
وصونه اللقمة ديناً له وبذله شركاً من الشُركِ
يودُّ من خِسته أنّه أمسى بلا ضرسٍ ولا فكِّ

إنّ معاني السّخرية والهجاء تزداد في نصه هذا، فبخيله كثير الاهتمام بالخبز، شديد المحافظة عليه، وإذا ما فكّر أحد بأخذه منه، فليتوقع حدوث معارك طاحنة كالتي وقعت بين الدّيلم والترك، فهو يحتفظ بالخبز اليابس في جيبه كأنّه مسك يُتطيب به، ويتابع ويصوره لنا كيف يتمنى صيام ضيفه حتى أنّه يعدّ ذلك نوعاً من أنواع الزهد والتنسك، فإن صان اللقمة كان ديناً جيداً، وإن بذلها كان كالشرك بالله، ثمّ نراه يجعل من هذا البخيل إنساناً خسيساً دنيئاً، لأنه يتمنى أن يكون ضيفه بلا ضرس ولا فكّ حتى لا يأكل في منزله أي شيء.

وبناءً على ما سبق من نقد وسخرية تناولت الظواهر الاجتماعية الفاسدة التي شابت المجتمع العباسي وعكّرته يمكن عدّها شعراً اجتماعياً يحملُ إن صحّ التعبير (رسالةً أخلاقيةً إصلاحيةً)[1]، فالشاعر عندما يتناول هذه الظواهر ويجعل منها مادةً غنيةً لقصائده ويقدّمها بهذا الأسلوب الساخر، إنّما يزيل الستار عنها ويكشف الحقائق التي توعّي الناس وتحرضهم للقضاء عليها وتطهير المجتمع منها.

3- التّجليات الثّقافيّة والحضاريّة:

إنّ الأثر السلبي لتدهور الأوضاع السياسية وتخلّف أنظمتها لم يقف عند الواقع الاجتماعي، بل امتدّ وطال الواقع الثقافي لارتباطه أيضاً بالواقع السياسي ارتباطاً وثيقاً، ومنه استمدّ الشعراء موضوعاتٍ لنصوصهم الساخرة؛ حيث إنّ الخواء الثقافي والقمع السياسي وما يصاحب ذلك من اختلال الموازين وسقوط القيم الاجتماعية باعثٌ قويٌّ لا يُستهان به يدفع الأدباء نحو السخريّة والتّهكّم.[2]

وفي العصر العبّاسيّ وتحديداً الفترة التي عاصرها ابن الهبّاريّة كان الواقع الثقافي متخلّفاً لتخلف الأنظمة التي تحكمه، فقد أشار الشاعر إلى تدني المستوى الثقافي وتفشي الجهل وتملّكه عضد الدولة، وسخر منه سخرية مريرةً تنمُّ عن ألمٍ عميق يعانيه، وغصةٍ تكاد تخنقه لا بدَّ أن يبوح بها، فهو شاعر الحقّ والكلمة الصادقة لا يستطيع أن يغض الطرف ويسكت عن أيّ خلل يشوب مجتمعه، فكيف سينجو الخلل الثقافي والخواء الموجود فيه من لسانه السليط؟!.

(1) السخرية والتهكم في ملصقات عزّ الدين ميهوبي: رسالة ماجستير إعداد الطالبة سعاد سلامي، إشراف الدكتور محمد بن لخضر فورار، 2014-2015م، ص22

(2) ينظر السخرية في شعر البردوني (دراسة دلالية): عبد الرحمن الجبوري، المكتب الجامعي الحديث، العراق، ط1، 2011م. ص144.

وعليه تكثر الصور الساخرة التي رسمها ابن الهبارية بمهارةٍ عالية وإبداعٍ ينقل حقيقة الواقع الذي كثيراً ما عانى منه، ومنه سخرية الشاعر من واقع العالم وحاله البائسة في دولة طغى عليها الجهل، مثل قوله في شكاية الفضل: (من الطويل)[1]

تجاهلت لمّا لم أرَ العقلَ نافعا وأنكرتُ لمّا كنت بالعلمِ ضائعا

وما نافعي عقلي وعلمي وفطنتي إذا بتُ صِفْرَ الكفِّ والكيسِ جائعا

والقارئ لهذين البيتين لن يجد صعوبةً في تحسس الألم الصّارخ الذي يعانيه الشاعر وكلّ عالمٍ في عصره، فما أفنى حياته من أجله لم يستطع أن ينتشله من مستنقع الفقر الذي يغرقون فيه شيئاً فشيئاً، فلم يبقَ أمامهم إلا التظاهر بالجهل والحماقة، بل وإنكار العلم الذي ضحوا في سبيل الحصول عليه، لأن دولتهم سلبت حقوق العالم وأبسطها حق المشاركة في مؤسسات الدولة وتسيير أمورها، هذا ما جعل منهم عاطلين عن العمل لا حرفة بين يديهم يقتاتون منها.

هذه هي حقيقة دولتهم التي أدركها ابن الهبّاريّة وسخر منها ومن نفسه التي كانت تطمع بالعُلا عن طريق العلم والمعارف، فعدّها غبية حمقاء لحرصها على السعي الدؤوب وراء العلم والمحافظة عليه، في حين أنّ ذلك هو سبب شقائها وتعاستها، (من الكامل) :

قد كنتُ أطمعُ بالفضائل في العُلا فالآن جُلُّ مُنايَ أن أتخلَّصا

لو كنت أعلمُ أنَّ فضلي ناقصي ما كنتُ من سفهٍ عليه لأحرصا[2]

ويمكن قراءة كلام ابن الهبّاريّة على وجه آخر وتحميله مقاصد أخرى يريد أن يفصح عنها ولكن بطريقة غير مباشرة، فاختار لها هذه السّخريّة ؛ فما يريد البوح به هو أنّ استلام الجاهل وأخذه مكان العالم لم يكن عبثاً أو عن عدم دراية من هؤلاء الحكّام، إنّما كان عن قصدٍ وإصرارٍ، لأنّ الجاهل تسهل السيطرة عليه والتحكّم به بما يناسب مصالحهم، فهو غير قادر على اتخاذ قراراتٍ صائبةً تنفع الدولة، كما أنّه ضعيف لن يقوى على مجابهة الحكّام أو الوقوف بوجههم، وهذا ما يريدونه فإنسان عالم صاحب قدرة ذهنية وعلمية قويٍّ لن يستطع هؤلاء السيطرة عليه والتحكّم به، بالتالي سيعرقل مصالحهم ويقف بوجه قراراتهم التي تؤذي الدولة وتدمرها، لذلك تمّ نبذ العلماء بعيداً عن مقاليد الأمور في الدولة.

وعليه يمكن القول إنّ إنكار الشاعر لعلمه وتظاهره بالجهل والحماقة ربما كان من باب حماية نفسه من بطش هؤلاء وإبعادها عن الهلاك، فقد يقوم أرباب دولته بقتل العلماء والتخلص منهم، لأنهم الوحيدون القادرون على عرقلة مصالحهم وعلى انتشال الدولة من بؤسها وهلاكها بعلمهم وقراراتهم الحكيمة.

وطالت سخرية ابن الهبارية لتنال من المعلمين وتذمهم، وذلك لم يكن كرهاً للعلم ورفضاً له، إنّما جاءت سخريته هذه لأنّ المعلمين في زمنه لا يجهدون أنفسهم في إيضاح الحقائق والمعارف للناس، كما أنّهم حصروا اهتمامهم في أمور معتادة لا مجال للتجديد فيها، وهذا ما كرهه ابن الهبّاريّة ومقته منهم، كقوله: (من الوافر)[3]

---

[1] شعر ابن الهبّاريّة: ص135-136

[2] المرجع السابق: ص115

[3] المرجع السابق: ص143

ولكنّ المعلّمَ ذقنُ سُرْمٍ خفيفُ الرأس ليس له دماغُ
وقد دُبغت رؤوسهمُ فأضحتْ نواشفَ قد تحيّفَها الدِّباغُ

هذه السّخرية الطريفة ليست للفكاهة والتندر، إنّما لنقد تلك الطائفة من المعلمين، فقوله (دُبغت رؤوسهم، تحيّفها الدِّباغ) إشارة واضحة إلى ضيق الأفق عندهم وجمودهم في العلم، فكما هو معروف إنّ الدّباغ يوضع على الجلد ليزيل مرونته ويجعل منه صُلباً قاسياً، وعقول هؤلاء المعلمين دُبغت بأفكار قديمة وأمورٍ بالية لا نفع لها حتى أصبحت صلبة قاسية حدّ الجمود لا تقبل رأياً أو علماً جديداً نافعاً.

وفيما يتعلّق بالمظاهر الحضارية نلمح عند ابن الهبّاريّة تبرماً ونقداً لزيف هذه الحضارة وتعقد مظاهرها، فكما هو معروف أنّ المجتمع العباسي(يختلف في تكوينه وتركيبه وثقافته وعاداته عن المجتمعات التي ألفنا الحديث عنها في صدر الإسلام وعهد بني أمية ومرحلة النقلة من الأموية إلى العباسية...)[1]حيث ورث هذا القرن (القرن الثالث) حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو في هذه الأمم وفي الأمم التي اتصلت بها من ترك وهند وصين، فانتشر الترف ورغد العيش وغرقت القصور ببذخها والمبالغة حدّ الإغراق في زينتها ولهوها: المهندسون والمزخرفون والمطربون والطُّهاة والندماء يستبقون في تجديد أساليب المعيشة وجلب ألوان المسرة.[2]

باختصار يمكن القول إنّ المرحلة العباسية (بكل ما تميزت به من سلوك ثقافي وانفردت به من تحلل اجتماعي جاء نتيجة لتغير المجتمع من عربي السلوك إلى فارسي السمات)[3]

هذا بالتحديد ما آثار نقمة الشاعر وسخطه، وجعله يوجه سهام نقده نحو ما آلت إليه البلاد من زيف في حضارتها وتعقد في مظاهرها، كما هو واضح من قوله في بغداد، (المنسرح)[4]

بغدادُ دارٌ رياضُها أُنُفُ والغيثُ في عنفوانِها يَكِفُ
ومع تصاريفِ طيبِ لذّتها مُقامُ مثلي بمثلها شَرِفُ
إذ كلُّ منْ حلّها و أُوطِنَها جواهرُ عند كسرِها خَزَفُ
وإن رأيتِ الثيابَ رائقةً فتلكَ درٌّ في جوفها صَدَفُ

للوهلة الأولى يبدو الشاعر مُعجباً بهذه الحضارة الجديدة من رياض وقصور، لكنّه وبأسلوب ساخر يكشف مثالب هذه الحضارة وزيفها؛ حيث كلّ ما فيها يبدو جواهر ولآلئ تأخذ بالألباب لكن مع الاقتراب منها والاندماج فيها ستتكشف حقيقتها، فهذه الجواهر ماهي إلا طينٌ وفخارٌ لا قيمة له.

---

(1) الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1. 1979م، ص171
(2) ينظر ابن الرومي: ص35، 41.
(3) الشعر والشعراء: ص171
(4) شعر ابن الهباريّة: ص146- 147، الأنف: الجديد، يكف: وكف الماء: سال وقطر قليلاً قليلاً ، تصاريف الأمور: تخاليفها.

وما يبهرك من رُقي وجمال هو سرابٌ وغير حقيقي، لذلك جعل ابن الهبّاريّة حسن المظاهر ورُقيها تبدو للناظر إليها كالدّرِ، لكن هو في حقيقته وباطنه صدفٌ وغشاء فارغ لا قيمة له، فلا تدع هذه المظاهر الكاذبة تغرُّك وتخدعك.

فسخرية ابن الهبارية جاءت دعوةً صريحةً للابتعاد عن هذه المظاهر الزائفة وعدم الاغترار فيها، لأنّ ظاهرها حلو جذاب يأسر القلوب وجوفها فارغٌ لا قيمة له ولا فائدة منه.

وفي نصٍّ آخر يشير الشاعر إلى مظاهر التّرف الزائد والبذخ المبالغ فيه، منتقداً انسياق النّاس وراء ذلك، يقول: (من مجزوء الرّجز المخمس) [1]

الأصفر المنقوشُ شِيدت به العروشُ

به الفتى يعيشُ وباسمه يطيشُ

لولاه ما شاء فعلْ

يا عجباً كلَّ العجبْ لا أدبٌ ولا حسبْ

ولا تُقىً ولا نسبْ يغني الفتى عن الذّهبْ

سبحانه عزَّ وجلْ

هذا النّصّ الهزلي ينتقد فيه الشاعر انقلاب الموازين وانحلال القيم التي كان يفخر بها العربيّ ويعتزُّ، حيث إنّ موجة التحضر أخذت بعقول النّاس وأنستهم قيمهم ومبادئهم، حتى أصبح الذهب يغني عن الأدب والحسب والنسب، تلك القيم التي كانت دائماً مصدر اعتزازٍ وفخرٍ للعربيّ، لكنها في هذا الزمن ضاعت وتلاشت مقابل مظاهر زائفة رديئة لم يألفها العربي ولم يتربَّ عليها، لكنه هامَ بها وانساق وراءها غير مدرك لعواقبها .

الخاتمة:

إنّ ما قدّمناه من نصوصٍ ساخرةٍ للشاعر العباسيّ ابن الهباريّة تبيّن لنا مدى قوّة وفعالية السخريّة في محاربة الظلم والفساد المتفشي في المجتمع، وتؤكد أنّ السّخريّة ظاهرة أدبية كوّنت فنّاً قائماً بذاته يعكس صورة الواقع وينقل أحداثه بشفافيّةٍ وصدقٍ كبيرين، فهي أشعار تمسُّ شغاف القلوب بصدقها، وتتماز بأسلوبها الفكه ومعانيها الطريفة، ما جعلها بجعبة الأدباء سلاحاً فتاكّاً يهابه الجميع.

وقد حاول ابن الهبّاريّة أن ينسج من سخريته درعاً تقيه وتقي مجتمعه شرَّ الظلم والفساد الذي تفشى وسرى في عُضد الدولة وتملكها. وهو بعينه الناقدة وذاته التي ترفض الخلل وتتوق إلى المثالية في كلّ شيء لم يترك مثلبة إلا وتناولها ورماها بسهام مصمية، سواء أكانت في الواقع السياسي بنظامه الفاسد وحكامه الأراذل أم الواقع الاجتماعيّ بعاداته وتقاليده، أم الثقافي بجموده وتدني مستواه، حتى الواقع الحضاري بزيفه وتعقد مظاهره

[1] المرجع السابق: ص179

لم ينجُ من سخريته المريرة، فسخريته لم تغفل أي شيء من شأنه أن يشوّه صورة المجتمع ويعكّر صفوه، وهذا ما جعل من شعره وثيقةً تاريخيةً بالغة الأهمية.

المراجع:

1_ ابن الرومي الشاعر المجدد: د. ركان الصفدي، ط1، *منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب*، وزارة الثقافة، دمشق، 2012م.

2_ *زمن الشعر*: أدونيس، دار الفكر للطباعة والنشر، ط5، 1986م.

3_ *السّخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري*: نعمان محمد أمين طه، ط1، دار التوفيقية، القاهرة، 1978م.

4_ *السّخريّة في شعر البردوني*(دراسة دلالية)، عبد الرحمن محمد حسين الجبوري، المكتب الجامعي الحديث، ط1، العراق، 2011م.

5_ *السخرية في شعر عبد الوّهاب البياتي*: إعداد أ. د. صدام فهد الأسدي والباحث طالب الدكتوراه: باسم حساب راشد، 2011م.

6_ *السّخريّة في شعر نديم محمد*: د. آصف دريباتي. https://books.google.com، تاريخ القراءة 2021/7/15م

7_ *السخرية والتهكم في ملصقات عزّ الدين ميهوبي*: رسالة ماجستير إعداد الطالبة سعاد سلامي، إشراف الدكتور محمد بن لخضر فورار، 2014-2015م.

8_ *شعر ابن الهباريّة*: جمعه وحققه د. محمد فائز سنكري طرابيشي، تقديم: د. محمد حموية، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1997م.

9_ *الشعر والشعراء في العصر العباسي*: د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م.

10_ *العصر العباسي الأول*: د. شوقي ضيف، ط 16، دار المعارف، مصر، 2004م.

11_ *الفكاهة والضحك رؤية جديدة*: عبد الحميد شاكر، د. ط، منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2003م.

12_ *في محراب الكلمة*: ياسين الأيوبي، المكتبة العمريّة، بيروت، 1999م.

13_ *المعجم الأدبي*: جبور عبد النور، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م.

14_ *الهجاء الفكاهي في الشعر العباسي*: أ. د ثائر الشمري، كلية التربية الإسلامية، جامعة بابل، مجلة دواة، مجلد2، الإصدار9، 2016م.

15_ *الهجاء في الشعر العربي الأندلسي*: د. نافع عبدالله ، ط1، كلية الآداب ، جامعة بيرزيت، 1984م.